جامعة المنصورة
كليـة الآداب

رؤية الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية للأحوال والمقامات

إعـــداد

عبد اللطيف عبد العزيز عبد اللطيف المرشدى
باحث لدرجة الماجستير بقسم الفلسفة
كلية الآداب – جامعة المنصورة

إشـــراف

الاستاذ الدكتور/ عادل محمود بدر
أستاذ الفلسفة الإسلاميـة
كلية الآداب- جامعة المنصورة

الدكتور/ هشام السعيد
مدرس الفلسفة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة المنصورة

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد الحادى و الخمسون – أغسطس ٢٠١٢

رؤية الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية للأحوال والمقامات

عبد اللطيف عبد العزيز عبد اللطيف المرشدى

مـــدخل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين وبعد .

فهذا فصل بعنوان (رؤية الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية للمقامات والأحوال) وهو فصل مستل من رسالة الماجستير التى بعنوان (موقف الإمام أحمد ابن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية من التصوف) ومن المعلوم أن الأحوال والمقامات هما عماد التصوف الإسلامي لأنهما من الناحية العملية يمثلا المدارج التى يصعد عليها الصوفي للوصول الى الحق سبحانه تعالي فحياة السالك لا تخرج عن نطاقها.

ومن الناحية النظرية فإن الأحوال والمقامات تحتل مكانة الصدارة لدى كل من كتب عن التصوف الإسلامي.

والإمام أحمد بن حنبل فى موقفه من الأحوال والمقامات يختلف عن ابن تيمية في أنه ركز على ما ورد في الكتاب والسنة عنهما كما أنه لم يكن مصطلح الأحوال والمقامات قد استقر ، بخلاف ابن تيمية الذي ذكرهما تحت مصطلح الأحوال والمقامات ، كما أن الإمام أحمد بن حنبل قد ركز علي الجانب العملي فيهما دون النظري إذ لم يذكر تعريفا ولا أقساما بخلاف ابن تيمية.

وأسأل الله القبول

أولاً : رؤية الإمام أحمد بن حنبل للمقامات والأحوال

من المعلوم لدي كل باحث في مجال التصوف أن عماد الطريق الصوفى قائم على المقام والحال وقد كان للإمام أحمد بن حنبل رؤيته فى المقامات والأحوال وإن لم يسمها باسمها كما هى عند الصوفية إذ أن مصطلح الأحوال والمقامات لم يشتهر إلا لدى مؤرخى التصوف كالقشيري فى رسالته والسهروردي فى عوارفه ولكن الاتفاق بين الإمام أحمد والصوفية كان فى مفردات هذه المقامات والأحوال ويلاحظ على موقف الإمام أحمد من الأحوال والمقامات عدة أمور :

أولاً : الإمام أحمد بن حنبل لم يكن صاحب فكر نظرى ولكن كان نموذج تطبيقياً لمبادئ المقامات والأحوال .

ثانياً اعتماده فى فكره وتطبيقه للمقامات والأحوال على ما ورد فى الشرع ولذا نجده يخصص كتاباً مستقلاً عن مقام الزهد الذى يعد الدرجة الثالثة فى مدارج السالكين كما هى عند ابن القيم أو مقامات العارفين كما هى عند الصوفية .

ثالثاً : استفاد الإمام أحمد بن حنبل من معاصريه فى تكوين آرائه عن الأحوال والمقامات ولذا كان يطبق فتاواه الفقهية على ما يعلمه من سلوكيات لأئمة الصوفية فى عصره ويظهر ذلك جلياً فى فتواه لأخت بشر الحافى فيما يتعلق بمقام الورع .

رابعاً : أنه لم يهتم كثيراً بتعريف الأحوال والمقامات ولا بالحديث حول المقام وإنما ينصب اهتمامه على إيراد النصوص الشرعية حول المقام أو الحال كما يظهر ذلك واضحاً فى كتابه المشهور (الزهد) .

وفى هذا البحث سوف نلقى الضوء على بعض المقامات والأحوال فى تراث الإمام أحمد والتى تحدث عنها صراحة وإن لم يطلق عليها أحوالاً ومقامات .

رؤية الإمام أحمد للمقامات

١) مقام التوبة :

وهو أول مقام يعرج عليه العارفون للوصول إلى الله .

قال أبو محمد [١] رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمى –رحمه الله– يقول أحمد بن حنبل : إن التوبة واجبة من الذنوب، وإنها تمحو ما سلف إذا قارنها الإخلاص، وهو الندم على ما فات، وترك المماطلة أو التسويف، والعزم على عدم العودة، وإن البارئ لا يجب عليه قبولها لأنه لا يجب عليه شيء، وإنما يتفضل على عبده بذلك إحساناً منه [٢] ، ويتلو ﴿ **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ [٣] ويأمر بالتوبة فى كل حال، ويدعو إليها النساء والرجال من المكلفين ويقول : هى واجبة على الأعيان، ويتلو ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [٤] وقد توعد الله تعالى على تأخيرها، وعظم الجرم على من تركها، فقال : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ** ﴾ [٥] .

---

(١) قال عنه الذهبى : الشيخ الإمام، المعمر، الواعظ، رئيس الحنابلة (ت٤٨٨هـ) انظر : سير أعلام ٦٠٩/١٨ .

(٢) يرد ذلك ادعاء المعتزلة القول بالوجوب على الله .

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٧٠ .

(٤) سورة النور من الآية : ٣١ .

(٥) سورة النساء من الآية : ١٨ .

ويحث الأمة على وجوب المبادرة بالتوبة، ويروى عن النبى ﷺ أنه قال : (إنه ليغان على قلبى لأتوب إلى الله فى اليوم سبعين مرة) [١].

ثم يقول الإمام أحمد : "من ترك التوبة وجبت عليه التوبة، لأنه ترك واجباً فهو كراكب الذنب، وكان يذهب إلى أن قبولها ليس بواجب على البارئ، وإنما هو تفضل منه، وترغيب لعباده ولأن الواجب ما ألزمه ملزم، وليس له سبحانه ملزم .

وكان يجوّز التوبة من بعض الذنوب، حذراً من تنفير المكلف الذى لا يستطيع ترك جميع ما تعود، قال الله تعالى فى قطاع الطريق ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [٢] ولم يشترط فى ذلك توبتهم من جميع ذنوبهم، وكان يجوز توبة من تاب ونقض، ويقول : من تاب ونقض فهو مؤاخذ بما يأتى إلا أن يعفو الله عنه .

والتوبة عنده : الندم على ما مضى، والعزم على ترك فعل مثله، فإن كان عجز عن المثل كفاه الندم على ما مضى، فقال النبى ﷺ : "الندم توبة" [٣] ويجب عليه تجديد الندم عند تجدد ذكر ما أجترم، لأن الأنس بذكر الذنب وتسهيل العبارة به دليل على عدم التألم، وذلك إصرار فلذلك وجب تجديد الندم" [٤] .

---

(١) صحيح مسلم فى الذكر والدعاء والتوبة الاستغفار باب التوبة حديث رقم ٢٧٠٢ ج١٧ ص١٩٤ . وأخرجه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله قال (والله إني لا استغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مره) حديث رقم ٦٣٠٧ ج١١ ص ١٤٠ ، طبقات الحنابلة ٢٢٧/٢ ، ٢٢٨ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٣٤ .

(٣) أخرجه أحمد ٣٧٦/١ ، ٤٢٣ ، ٤٣٣، وابن ماجة (٤٢٥٣)، وصححه ابن حبان برقم (٦١٢)، وقال البوصيرى فى مصباح الزجاجة ٢٧٠ هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٤) المصدر السابق ٢٢٨/٢ .

وقال ابن مفلح : فى سرد التوبة من البدعة المفسقة والمكفرة أن من تاب من بدعة مفسقة أو مكفره صح إن اعترف بها وإلا فلا، فالتوبة من البدعة لابد من الاعتراف بها والرجوع عنها كما "قال أحمد فى رواية المروذى فى الرجل يشهد عليه بالبدعة فيجحد ليست له توبة، إنما التوبة لمن اعترف، فأما من جحد فلا توبة له" .

وقال فى رواية المروذى : وإذا تاب المبتدع يؤجل سنة حتى تصبح توبته، واحتج بحديث إبراهيم التيمى أن القوم تاركوه فى صبيغ بعد سنة، فقال : جالسوه وكونوا على حذر" [1] .

وهو فى هذا لا يتحدث عن قبول التوبة من عدمها من جانب الله وإنما يركز الإمام أحمد على الناحية الاجتماعية فى موقف المجتمع من التائب ولعله يشير فى تحديد مدة عام إلى أن التائب لا زالت رائحة الذنب عالقة به فيتأثر مخالطوه بها وهى رؤية من وجهة نظرى موغلة فى الروحانيات .

وقال القاضى أبو الحسين بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : فظاهر هذه الألفاظ قبول توبته منها الاعتراف والمجانبة لمن كان يقارفه ومضى سنة، ثم ذكر رواية ثانية : أنها لا تقبل، واختارها ابن شاقلا، واحتج لاختياره بقوله ﷺ : "من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة" [2] ، وروى أبو حفص العكبرى بإسناده عن أنس مرفوعاً :"إن الله عز وجل احتجر التوبة عن كل صاحب بدعة" [3]"[1] .

([1]) الآداب الشرعية ١٣٧/١ .

([2]) صحيح مسلم (ح١٠١٧)، وابن ماجة (٢٠٣)، وابن حبان (٣٣٠٨) .

([3]) أخرجه أبو السيخ فى تاريخ أصبهان (٧٥٣)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٩٤٥٧) من طريق هارون بن موسى الفروى، عن أبى ضمرة أنس بن عياض، عن حميد، عن أنس وأنس بن عياض ذكروا فى ترجمته أنه كان

ولكن عقب شيخ الإسلام بن تيمية فيقول : "وهذا القول الجامع للمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم، وإن كان من الناس من استثنى بعض الذنوب كقول بعضهم إن التوبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطناً للحديث الإسرائيلى الذى فيه : "فكيف من أضللت؟" وهذا غلط؛ فإن الله قد بين فى كتابه وسنة رسوله ﷺ أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع" (٢) .

وقد روى الترمذى وحسنة عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى، يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى ولا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة" (٣) .

فتعليق الغفران على الاستغفار دل على اعتباره، والمراد أنه استغفر من ذنوبه توبة، وإلا فالاستغفار بلا توبة لا يوجب الغفران، وقد سماه ذو النون المصرى بتوبة الكذابين (٤) .

أحمق يدفع كتبه إلى الناس، وليس له رواية عن حميد أصلاً غير هذا الحديث .

(١) المرجع السابق ١٣٨/١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أخرجه الترمذى (٣٥٤٠) وهو حديث حسن كما قاله الترمذى، انظر : جامع العلوم والحكم حديث رقم ٤٢ ص ٦٧٢ .

(٤) المرجع نفسه ١١٥/١ .

وقبول التوبة مفتوح إلى طلوع الشمس من مغربها، وقد روى الإمام أحمد من حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ : "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" [١] .

كما أخرج الإمام أحمد أيضاً عن صفوان بن عسال مرفوعاً : "باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أربعون أو سبعون سنة، خلق الله عز وجل يوم خلق السماوات والأرض مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه" [٢] .

وأخرج الإمام مسلم وغيره عن أبى هريرة ﷺ مرفوعاً : "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه" [٣] .

ويلاحظ من كل ما سبق أن الإمام أحمد فى حديثه حول التوبة إنما يتحدث عن درجة توبة العوام وهى أول درجات التوبة عند الصوفية .

٢) مقام الورع :

قال أبو بكر المروذى : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ﷺ –وذكر أخلاق الورعين– فقال : أسأل الله أن لا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟ وحينما سئل : هل للورع حد يعرف؟ فتبسم وقال : ما أعرفه [٤] . وهذا دليل على عظيم منزلة الورع عنده .

---

(١) مسلم فى كتاب التوبة ٢١١٣/٤ (٢٧٥٩) . ومسند احمد ج١٣ ص ١٣٨ (٧٧١١)

(٢) أخرجه أحمد ج٣٠/ص١٧(١٨٠٩٣)، والترمذى (٣٥٣٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح . واخرجه ابن ماجه في سننه ص ٦٩٦ وقال حديث حسن (٤٠٧٠)

(٣) مسلم فى كتاب الذكر والدعاء ٢٠٧٦/٤ (٢٧٠٣) .

(٤) كتاب الورع للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق دكتور مصطفى محمد حسين الذهبى، ط١ مكتبة نزار مصطفى البار ١٤١٨هـ صـ٢١ .

فقد كان –رحمه الله– لا يريد تعريف الورع بحده –تورعاً منه– وإنما عرفه بأصحابه، اتضح ذلك من خلال كتابه الورع، الذى تحدث فيه عن عدد من الأعلام الورعين [١] .

وقال المروذى : "سألت أبا عبد الله عن الرجل يكون معه ثلاثة دراهم، منها درهم حرام لا يعرفه؟ قال : لا يأكل منه شيئاً حتى يعرفه، واحتج أبو عبد الله بحديث عدى بن حاتم أنه سأل النبى ﷺ فقال : إنى أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر، فقال : "لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذى أمسك عليك" [٢] ، قلت له : فإن كانت دراهم كثيرة ؟ فقال : إذا كانت دراهم كثيرة فهو أعجب إلى، إذا كانت ثلاثين أو نحوها وفيها درهم حرام أخرج الدرهم" [٣] .

وذكر لأبى عبد الله عن بعض الناس أنه قال : إذا كان الشيء المستهلك مثل الدهن والزيت، والذى لا يوصل إليه بعينه أعطى العوض؟ قال : نعم هكذا هو، وسمعت سفيان ابن عيينة يقول : لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه" [٤] .

وسئل الإمام أحمد عن أمر الورع فاحتج بحديث أبى بكر الصديق ﷺ فى القيء عن قيس قال : كان لأبى بكر ﷺ غلام، فكان إذا جاء بغلته لم يأكل حتى يسأله، قال : فنسى ليلة فأكل ولم يسأله، ثم سأله فأخبره أنه من شيء يكرهه، فأدخل يده فى فيه فتقيأ حتى لم يترك شيئاً [٥] .

([١]) المصدر نفسه صـ٢١ : ٣١ .

([٢]) أخرجه أحمد ٣٠ج/٢٥٧ص (١٨٢٥٨) .

([٣]) نفسه صـ٤٧ .

([٤]) نفسه .

([٥]) حلية الأولياء ٦٥/١ .

وأبو عبد الله مناولة : عن محمد بن سيرين قال : لم أر أحداً استقاء من طعام غير أبى بكر، فإنه أتى له بطعام فأكل، ثم قيل له : جاء به ابن النعيمان قال : فأطعمتمونى كهانة ابن النعيمان، ثم استقاء .. [١] .

قال أبو بكر المروذى مبيناً أيضاً موقف الإمام أحمد من الورع : قلت لأبى عبد الله : بعت ثوباً من رجل، أعنى أكره كلامه ومبايعته، فقال : دعنى حتى أنظر فيها، فلما كان بعد سألته فقال : توق أن تبيعه، قلت : فإن بعته وأنا لا أعلم؟ قال : إن قدرت أن تسترد البيع فافعل، قلت : فإن لم يمكنى، أأتصدق بالثمن؟ قال : أكره أن أحمل الناس على هذا فتذهب أموالهم، قلت : فكيف أصنع؟ قال : ما أدرى، أكره أن أتكلم فيها بشيء، ولكن أقل ما هاهنا أن يتصدق بالربح ويتوقى مبايعتهم [٢] .

وجاءت أخت بشر الحافى –ذات يوم– إلى أحمد بن حنبل فقالت : إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية، ويقع الشعاع علينا أ فيجوز لنا الغزل فى شعاعها؟ فقال أحمد : من أنت عافاك الله تعالى؟ فقالت : أخت بشر الحافى، فبكى أحمد وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلى فى شعاعها [٣] .

ورهن الإمام أحمد سطلا له عند بقَّال بمكة المكرمة حرسها الله تعالى، فلما أراد فكاكه أخرج البقال سطلين وقال: خذ أيهما لك؟ فقال أحمد : أشكل على سطلى فهو لك والدراهم لك، فقال البقال : سطلك هذا وأنا أردت أن أجربك، فقال : لا آخذ ومضى، وترك السطل عنده تورعاً [٤] .

([١]) كتاب الورع صـ٦٧ .

([٢]) نفسه صـ٣٥ .

([٣]) الرسالة القشيرية صـ١١١ .

([٤]) المصدر السابق صـ١١٣ .

هذا الموقف من الإمام أحمد –رحمه الله– هو أيضاً موقف بعض الصوفية المتقدمين، فهذا إبراهيم بن أدهم قال فى الورع : بأنه ترك كل شبهة [١] .

وقال يونس بن عبيد : الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس فى كل طرفة .

وكان الحارث المحاسبى إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس إصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال [٢] .

وقد ذكر الإمام أحمد نفسه ورع هؤلاء الصوفية فيقول : "قال بشر بن الحارث : سمعت المعافى بن عمران يقول : كان عشرة فيمن مضى من أهل العلم فينظرون فى الحلال النظر الشديد ، لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استفوا التراب، ثم عد بشر : إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، وعلى بن الفضيل، وأبا معاوية الأسود، ويوسف بن سباط، ووهيب بن الورد، وحذيفة –شيخ من أهل حران– وداود الطائى، فعد عشرة كانوا لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استفوا التراب" [٣] .

والحق أن الإمام أحمد –رحمه الله– كان من أورع الناس كما قال عنه الإمام الشافعى [٤] ، ويتجلى ذلك من خلال مواقفه وعباراته فى كتابه الورع، الذى تضمن لكثير من أخباره وتوجيهاته نحو الورع .

([١]) نفسه صـ١١٠ .

([٢]) نفسه صـ١١٢ .

([٣]) كتاب الورع صـ٢٦ ، ٢٧ ، وتاريخ بغداد ٢٤١/٩ ، وصفة الصفوة ١/٣ .

([٤]) انظر : تاريخ بغداد ٤١٩/٤ .

قال أبو بكر المروذى : "سمعت أبا عبد الله يقول : سمعت أبا ثعلبة الخشنى يقول: قلت : يا رسول الله أخبرنى ما يحل لى وما يحرم على؟ قال : فصعد النبى ﷺ البصر فى وصوب، فقال النبى ﷺ : "البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون" [١]"[٢] .

لقد أخذ الإمام أحمد بالورع ، فكان –رحمه الله– يدع الشبهة مخافة الوقوع فى الحرام، ولقد عاش فقيراً كثير العيال، ولم يكن له غلة إلا ملك ورثه من أبيه يؤجره فى كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله، ويقنع بذلك –رحمه الله– صابراً محتسباً، وربما اضطر فنسخ بالأجرة [٣] .

أما من حيث ورعه فى الفقه فقد كان ذلك مضرب المثل، فإنه إذا صحت لديه روايات متعددة عن الصحابة لم يحاول أن يرجح بينها، بل أثبتها كلها ورويت عنه جميعها من غير ترجيح، وليس ذلك منه عجزاً عن الترجيح، وإنما كان يتورع أن يلتزم بقول أحد منهم أو عمله، ويكون الحق والصواب مع آخر .

([١]) أخرجه أحمد ٢٩ج/ص ٢٧٨، قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد والطبرانى وفى الصحيح طرف من أوله ورجاله ثقات ١/١٧٥ ، ١٧٦ . و قال ابن رجب وخرج الامام احمد عن رواية عبدالله بن العلاء بن زيد سمعت مسلم بن مشكم قال سمعت أبا ثعلبة الخشني يقول :قلت يا رسول الله أخبرني ما يحل لي ....)وقال هذا ايضا اسناد جيد وعبدالله ابن العلاء بن ويد ثقه مشهور وخرج له البخاري اما مسلم بن مشكم فثقه مشهور ليضا

([٢]) كتاب الورع صـ٤٥ .

([٣]) أحمد بن حنبل إمام أهل السنة صـ٢١١ .

وكذلك كان ورعه فى فتاواه، فإن كان هناك ما يجيب المستفتى فبها ونعمت، وإلا شدد فى الاحتياط لدينه، ورد الفتوى إلى ما قال الله ورسوله، فإن لم يجد ردها إلى الصحابة رضى الله عنهم، أو ردها إلى التابعين [١] .

كل هذا جعل الإمام الشافعى يقول: الإمام أحمد بن حنبل، إمام فى ثمان خصال، إمام فى الحديث وإمام فى الفقه وإمام فى اللغة وإمام فى القرآن وإمام فى الفقر وإمام فى الزهد وإمام فى الورع وإمام فى السنة" [٢] .

معنى ذلك أن الإمام أحمد كان مشهوراً فى زمانه بالورع وذلك بشهادة أستاذه الشافعى .

وكونه إماماً فى الفقر يدل على مدى تطابق رؤية الإمام أحمد مع الصوفية فى مسألة الفقر وهو إلى الافتقار إلى الله أقرب وليست دعوة إلى ترك التكسب الذى استعاذ منه النبى ﷺ فى قوله : (وأعوذ بك من الفقر) الذى يعنى الجوع والعوز وهو ما رفضه أيضاً الإمام على فى قوله لو كان الفقر رجلاً لقتلته .

٣) مقام الزهد :

الزهد هو عبارة عن انصراف الرغبة من الشيء إلى ما هو خير منه، أو الإعراض بالقلب عن الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وهو رأس كل طاعة، فى فراغ من مشاغل الدنيا والاستعزاز بالله وحده سبحانه وتعالى .

---

(١) نفسه صـ٢١٢ .

(٢) إسلام بلا مذاهب صـ٤٦١ .

ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله : إن الزهد فى الدنيا قصر الأمل، وأنه عدم فرحه بإقبالها، ولا حزنه على إدبارها، فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهداً؟ فقال: شريطة أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت [١] .

وقد أشار إلى مثل هذا سيد الطائفة الجنيد حينما قال : بأن الزهد فى قوله تعالى : ﴿ **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [٢] ، فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود [٣] .

والزهد فى الدنيا الذى أشار إليه الإمام أحمد له شواهد من الكتاب والسنة .

فمن الكتاب مثل قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى** ﴾ [٤]، وقوله تعالى : ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ [٥]، وقوله تعالى : ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ [٦]، وقوله تعالى : ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾[٧].

ومن السنة النبوية مثل قوله ﷺ : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)) [٨] وقوله ﷺ : ((أزهد فى الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس))[٩].

٤) درجات الزهد :

---

(١) مدارج السالكين ١٣/٢ .
(٢) سورة الحديد الآية : ٢٣ .
(٣) مدارج السالكين ١٢/٢ .
(٤) سورة النساء من الآية : ٧٧ .
(٥) سورة الأعلى الآيتان : ١٦ ، ١٧ .
(٦) سورة طه الآية : ١٣١ .
(٧) سورة الحديد من الآية ٢٠ .
(٨) صحيح مسلم، فى الزهد والرقائق ٢٢٧٢/٤ (ح٢٩٥٦) .
(٩) سبق تخريجه.

يذهب الإمام أحمد إلى أن للزهد درجات ثلاث فقال :

الأول : ترك الحرام، وهو زهد العوام .

والثانى : ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين" [١] .

وقد كان للزهد عند الإمام أحمد –رحمه الله– مكانة عظيمة حيث صنف كتاباً فى الزهد الذى كتبه على نمط رواية الأحاديث، وهو كتاب يعطى صورة صادقة لحياة الإمام أحمد وزهده وتقشفه وورعه .

فقد تكلم فيه عن زهد رسول الله ﷺ، ثم أتبع ذلك بكلام لطيف وأخبار صحاح عن زهد أنبياء الله ورسله كزهد يونس ، وسليمان ، وأيوب ، وآدم ، ونوح ، وعيسى ، وموسى ، وداود ، وإبراهيم .. عليهم الصلاة والسلام

ثم أتبع ذلك بسرد جميل لزهد الخلفاء الأربعة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، وزهد كبار الصحابة الكرام كأبى الدرداء، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وأبى ذر، وعمران بن الحصين، وسلمان الفارسى، وأبى هريرة، وابن مسعود، والسيدة عائشة وغيرهم .

ثم أتبع ذلك بأخبار زهد كبار التابعين ومن تبعهم بإحسان كالأحنف بن قيس، ومسلم بن يسار، ومحمد بن سيرين ، وأويس القرنى وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم ممن تسعد النفوس بذكرهم وقراءة سيرهم [٢].

ومن هنا نستطيع القول أن الإمام أحمد فى زهده لا يخرج عن دائرة الزهاد السابقين فقد تأثر بهم أشد التأثر، كما حرص كل الحرص على الإقتداء فى سلوكه

---

(١) نفسه ٢/١٤ .

(٢) انظر : كتاب الزهد للإمام أحمد .

الشخصى بصفة خاصة بالحسن وابن سيرين وإبراهيم بن أدهم [1] كما روى ذلك الخلال فقال : "ثنا أبو بكر المروزى قال حدثنى أبو محمد النسائى جعفر بن محمد قال : قال لى أبو عبد الله يوم عيد : ادخل، فدخلت فإذا مائدة وقصعة على الخوان وعليها عراق وقدر إلى جانبه، فقال لى : كل ، فلما رأى ما بى قال : إن الحسن كان يقول : والله لتأكلن، وكان ابن سيرين يقول: إنما وضع الطعام ليؤكل، وكان إبراهيم بن أدهم يبيع ثيابه وينفقها على أصحابه، وكانت الدنيا أهون عليه من ذاك"[2] .

ونجد فى هذا النص لمحة جميلة وهى تأثره بعلم من أعلام الصوفية كابن أدهم ولو كان على خلافه لما تأثر به .

يقول الدكتور مصطفى الشكعة : "لقد قام الإمام أحمد بتطبيق تعاليم سيد الزاهدين محمد – ﷺ – حيث كان زاهداً إلى الحد الذى جعله يرفض الجلوس على الحصير لأنه من وجهة نظره ترف ومن ثم فقد أثر أن يجلس على التراب كما أنه ورد عنه أن المجد قد سعى إليه من قبل الخليفة المتوكل ليتولى ابنه المعتز بالرعاية ويعلمه لكنه اعتذر" [3] .

وكان من الأسباب التى دفعت الإمام الشافعى إلى القول بإمامته هو الزهد، حيث عاش –رحمه الله– لا يأكل ولا يطعم إلا من كسب يده، وكان أساس زهده ترك الحرام وطلب الحلال، والبعد عن حمى أية شبهة يمكن أن تنال من نزاهة النفوس، وكان يرى أن الزهد الصادق هو الذى يرقق النفوس ويلين القلوب، ويزيل عنها غشاوات الغرور والعجب .

([1]) مناقب الإمام أحمد صـ٢٤١ .

([2]) المصدر نفسه .

([3]) إسلام بلا مذاهب صـ٤٦٢ .

يقول الشافعى : "أحمد إماماً فى ثمان خصال : إمام فى الحديث وإمام فى الفقه وإمام فى اللغة وإمام فى القرآن وإمام فى الفقر وإمام فى الزهد وإمام فى الورع وإمام فى السنة" [١] .

وقد شرح العليمى شهادة الإمام الشافعى للإمام أحمد فى الزهد فيقول : "فحاله فى ذلك أشهر وأظهر، أتته الدنيا فأباها، والرياسة فنفاها، عرضت عليه الأموال وفوضت إليه أحوال وهو يرد ذلك بتعفف وتعلل وتقلل، ويقول : قليل الدنيا يجزئ، وكثيرها لا يجزئ، ويقول : أنا أفرح إذا لم يكن عندى شيء، ويقول : إنما طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وأيام قلائل .

وعن صالح بن أحمد قال : ربما رأيت أبى يأخذ الكسرة فينفض الغبار عنها، ثم يصيرها فى قصعة ويصب عليها ماء حتى تبتل ثم يأكلها بالملح، وما رأيته قط اشترى رماناً ولا سفرجلا ولا شيئاً من الفاكهة إلا أن يشترى بطيخة فيأكلها بخبز، أو عنباً أو تمراً، فأما غير ذلك فما رأيته قط اشتراه" [٢] .

وقال أبو عمير، عيسى بن محمد بن عيسى النحاس الفلسطينى –وذكر عنده أحمد ابن حنبل– فقال رحمه الله : عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، وبالصاحين ما كان ألحقه، عرضت له الدنيا فأباها، والبدع فنفاها، وخصه الله تعالى بنصرة دينه، والقيام بحفظ سنته، ورضية لإقامة حجته، ونصر كلامه حين عجز عنه الناس [٣] .

([١]) طبقات الحنابلة جـ١ صـ٥ ، إسلام بلا مذاهب صـ٤٦١ .

([٢]) المنهج الأحمد فى تراجم الإمام أحمد ٧٦/١ ، وانظر : سير أعلام النبلاء ٢٠٨/١١ .

([٣]) المنهج الأحمد ٧٧/١ .

وقال صالح بن أحمد بن حنبل : وقال لى يوماً يعنى –أباه– أنا إذا لم يكن عندى قطعة –أى من النقد– أفرح [1] .

ومن عظيم زهده وورعه إعراضه الشديد عن تولى القضاء –مع مسيس حاجته– فقد روى البيهقى من طريق المزنى عن الشافعى أنه قال للرشيد : إن اليمن يحتاج إلى قاض، فقال له : اختر رجلاً نوله إياها، فقال الشافعى لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه فى جملة من يأخذ عنه، ألا تقبل قضاء اليمن؟ فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً، وقال للشافعى : إنى إنما اختلف إليك لأجل العلم المزهد فى الدنيا، فتأمرنى أن ألى القضاء، ولولا العلم لم أكلمك بعد اليوم، فاستحى الشافعى منه [2] .

هكذا نرى الزهد والعفة عند الإمام أحمد، فقد قطع الطمع عما فى أيدى الناس من حكام ومحكومين، ولو كان فى شدة الحاجة والفقر ففضل أن يعيش ويأكل من كسب يده، وهذا يدل دلالة واضحة على أن زهده ليس زهداً سلبياً بل كان إيجابياً، يقول أحمد بن سنان الواسطى: بلغنى أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه عند خروجه من اليمن، وعرض عليه عبد الرزاق دراهم صالحة فلم يقبلها منه [3] ، فقد رهن نعله ليأكل، وأكرى نفسه، وأبى أن يأخذ حتى من شيخه عبد الرزاق، وقهرت عفته كل طمع حتى عند أمس الحاجة . وهذا ما فعله رسول الله عندما رهن درعه أيضاً ليأكل .

([1]) سير أعلام النبلاء ٢٠٩/١١ .

([2]) البداية والنهاية ٣٢٨/١٠ .

([3]) انظر : حلية الأولياء ١٨٦/٩ .

وبهذا العرض الموجز لبعض أقوال وأفعال الإمام أحمد المتعلقة بالزهد نجده يتفق مع زهد كثير من الصوفيين الذين كانوا لا يعيرون الدنيا اهتماماً بل كانوا فيها مثل كما قال النبى "كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" (١).

ونستطيع القول أنه كان فى موقفه من الدنيا أن لا يتركها كلية، فيأخذ منها قدر الزاد، فقد كان –رحمه الله– يمنع من المبالغة فى الزهد الموصل إلى تحريم ما أحل الله، والامتناع عما أباحه الله لعباده، قال أبو يعلى فى طبقات الحنابلة مبيناً موقف الإمام أحمد من الزهد : "وكان الإمام أحمد –رحمه الله– يمنع من التزهيد المفضى إلى تحريم ما أحل الله، والامتناع من المباح الذى رفع الله فيه الحرج، ويقول : قال النبى ﷺ : ((المحرم ما أحل الله كالمحل ما حرم الله)) (٢) إلا أن يكون رجلاً يخاف على نفسه الفتنة، أو يدعوه إلى الشهوة فليسرها بذلك، ويأخذ بالعزائم من غير أن يحرم ذلك فيجوز وقد قال النبى ﷺ : ((من ترك شيئاً لله عوض الله ما هو خير منه)) (٣)، ولم يزل العلماء يؤدبون نفوسهم بالمنع من الشهوات المباحات لا على وجه التحريم" (٤) .

ولعل هذا المفهوم من الأمور التى دفعته إلى الزهد والتعفف من قبول العطايا والأموال من الأمراء والعلماء والعامة من شيوخه وإخوانه، وكلهم كان لهم منه جواب واحد أنه بخير، وأنه فى كفاية وفى غنى وسعة .

---

(١) رواه البخارى جـ١١ / صـ٢٣٣ .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) ذكره السيوطى فى "الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة" (١٥٧)
والعجلونى فى كشف الخفا ٣١٢/٢ وقال السيوطى فى الدرر : رواه أحمد عن بعض أصحابه مرفوعاً بلفظ : "إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله إلا أعطاه خيراً منه ..." .

(٤) طبقات الحنابلة ٢٣٩/٢ .

وقال محمد بن على ثنا صالح أنه سأل أباه –رحمه الله– عن التوكل فقال : "التوكل حسن، ولكن ينبغى للرجل أن لا يكون عيالا على الناس، ينبغى أن يعمل حتى يغنى نفسه وعياله ولا يترك العمل .

قال : وسئل أبى –رحمه الله– وأنا شاهد عن قوم لا يعملون، ويقولون : نحن متوكلون فقال : هؤلاء مبتدعة [١] ، وهذا كما قال النبى للرجل "أعقلها وتوكل" .

نفهم من النصوص السابقة أن الإمام أحمد –رحمه الله– كان على منهج السلف الصالح فى شأن الزهد، وأنه لا يخالف ما ذهب إليه بعض الصوفية المتقدمين فى مفهوم الزهد، حيث اتجه بعضهم اتجاهاً يكون الفقر مطلباً أساسياً فيه مع تجويع البطن وتعرية الجسد . كما يقول أبو يزيد البسطامى : "نلت هذه المعرفة ببطن جائع وجسد عار" [٢] ، أو كما يقول أحدهم : "أحب للمبتدئ أن لا يشغل قلبه بالتكسب وإلا تغير حاله" [٣] . ونقلوا عن سيد الطائفة قوله : "الزهد هو تخلى الأيدى عن الأملاك" [٤] .

وهذه الظاهرة ليست بغريبة على بعض الصوفية المتقدمين حيث سجل لنا التاريخ كثيراً من حكاياتهم وكانوا من ذوى الأموال فتخلوا عنها، ثم أخذوا فى السياحة [٥] .

---

(١) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل فى العقيدة، للدكتور عبد الإله الأحمدى ٢٣٨/٢ .

(٢) انظر : قوت القلوب ١٦٨/٢، وطبقات الصوفية صـ٧٤ .

(٣) قوت القلوب ١٦٧/١ .

(٤) اللمع للطوسى صـ٧٢ .

(٥) انظر : تاريخ بغداد ٢٢١/٧ ، وسير أعلام النبلاء ٢٣١/١٥ .

"ويقول سهل بن عبد الله : خمسة أشياء من جوهر النفس : فقير يظهر الغنى، وجائع يظهر الشبع، ومحزون يظهر الفرح، ورجل بينه وبين رجل عداوة يظهر له المحبة، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يظهر ضعفاً [١] .

ويقول بشر بن الحارث: أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر .

ويقول ذو النون المصرى : علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر" [٢] .

هذا إذا لم يكن الهدف من الفقر عندهم الافتقار، وإنما اللجوء إلى الله عز وجل، وعدم التسخط على القدر فى حالة العدم، فهذا لا يتنافى مع الدين، وخاصة أن رسول الله ﷺ قال : ((اللهم أحينى مسكيناً، وأمتنى مسكيناً، واحشرنى فى زمرة المساكين)) [٣] .

وبهذا نجد أن زهد الإمام أحمد إذا قارناه بزهد المتصوفة فنجد يكاد يتسق معهم اتساقاً قوياً مما جعل مؤرخوهم يعدونه فى أعلام التصوف .

٥) التوكل على الله تعالى :

هو احد مقامات الصوفية وهو اصل من اصول الاسلام بصفة عامة اذ له علاقة بركن العقيدة الاصيل والقضاء والقدر ولقد فهم الامام احمد قضية التوكل كغيره من السلف علي وجهه الصحيح فارقا بين التوكل والتواكل.

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبى عن قوم يقولون: نتكل على الله ولا نكتسب؟ قال أبى : ينبغى للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ولكن يعودون على أنفسهم

---

(١) الرسالة القشيرية صـ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (ح٣٠٨) .

بالكسب، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ** ﴾ [١] ، فهذا قد علم أنهم يكتسبون ويعملون، وقال النبى ﷺ : ((من عال ابنتين أو ثلاثة فله الجنة)) [٢] يعنى من قال بخلاف هذا، فهذا قول إنسان أحمق" [٣] .

وهو بهذا يشير إلى عدم تعارض التوكل مع الأخذ بالأسباب وهى رؤية طالما أكدها الصوفية .

قال أبو بكر الخلال : أخبرنى إبراهيم بن الخليل أن أحمد بن نصر أبا حامد حدثهم أن أبا عبد الله قد سأله رجل : أيخرج إلى مكة متوكلاً لا يحمل معه شيئاً؟ فقال : لا يعجبنى فمن أين يأكل؟ قال : يتوكل فيعطيه الناس، قال : فإذا لم يعطوه، أليس يستشرف لهم حتى يعطوه؟ لا يعجبنى هذا، لم يبلغنى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين فعل هذا، ولكن يعمل ويطلب ويتحرى .. [٤] .

وقال أبو بكر الخلال أيضاً : أخبرنا عبد الله بن أحمد قال : سمعت أبى – رحمه الله– يقول : الاستغناء عن الناس بطلب –يعنى العمل– أعجب إلينا من الجلوس والانتظار ما فى أيدى الناس .

وأخبرنى محمد بن على ثنا صالح أنه سأل أباه –رحمه الله– عن التوكل فقال: "التوكل حسن، ولكن ينبغى للرجل أن لا يكون عيالا على الناس، ينبغى أن يعمل حتى يغنى نفسه وعياله ولا يترك العمل .

---

(١) سورة الجمعة من الآية : ٩ .

(٢) أخرجه أحمد ٤٢/٣ .

(٣) مسائل عبد الله بن أحمد صـ٤٤٨ .

(٤) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ٢٣٢/٢ .

قال : وسئل أبى –رحمه الله– وأنا شاهد عن قوم لا يعملون، ويقولون : نحن متوكلون، فقال : هؤلاء مبتدعة" [١] .

وقال أبو بكر المروذى: قلت لأبى عبد الله هؤلاء المتوكلة يقولون : نقعد وأرزاقنا على الله عز وجل، فقال : هذا قول رديء، أليس قد قال الله تعالى : ﴿ **إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ** ﴾ [٢] . ثم قال : إذا قال لا أعمل وجيء إليه بشيء قد عمل واكتسب لأى شيء يقبله من غيره .

وقال الخلال أخبرنا المروذى قال: سألت أبا عبد الله عن رجل جلس فى بيته وقال: أجلس وأصبر وأقعد فى البيت ولا أطلع على ذلك أحداً فقال : لو خرج فاحترف كان أحب إلى، فإذا جلس خفت أن يخرجه جلوسه إلى غير هذا، قلت : إلى أى شيء يخرجه؟ قال : يخرجه إلى أن يكون يتوقع أن يرسل إليه [٣] .

وقال أيضاً : حدثنا أبو بكر المروذى قال: سمعت رجلاً يقول لأبى عبد الله أحمد بن حنبل إنى فى كفاية، قال : الزم السوق تصل به الرحم وتعود به على عيالك، وقال لرجل آخر: اعمل وتصدق بالفضل على قرابتك، وقال أحمد بن حنبل قد أمرتهم، يعنى أولاده أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة" [٤] .

من خلال النصوص السابقة نرى أن الإمام أحمد كان على مذهب أهل الحق من سلف هذه الأمة، حيث فهم معنى التوكل بمفهومه الصحيح الإيجابى، وهو الأخذ بالأسباب، ثم الاعتماد على الله عز وجل، وهذا يتمشى مع طبيعة هذا الدين الحنيف،

([١]) المصدر السابق ٢٣٨/٢ .

([٢]) سورة الجمعة من الآية : ٩ .

([٣]) تلبيس إبليس صـ٣٤٧ .

([٤])المصدر السابق صـ٣٤٨ .

الذى جاء لعمارة الأرض وإصلاحها على أساس الفهم الصحيح لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ .

فكان الإمام أحمد يخالف ما عليه بعض الصوفية فى مفهوم التوكل، حيث فهم بعضهم بأن التوكل هو خلع الأسباب وقطعها كما أشار إلى ذلك ذو النون المصرى[1].

وقال ابن الجوزى منتقداً هذا المفهوم ومستدلاً بقول الإمام أحمد فيقول : "وقد لبس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ، قال رجل للإمام أحمد ﷺ أريد أن أخرج إلى مكة من غير زاد، فقال له أحمد : فاخرج فى غير قافلة، قال : لا إلا معهم، قال: فعلى جراب الناس توكلت؟ فنسأل الله أن يوفقنا" [2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : "وزعم طائفة أن من تمام التوكل أن لا يحمل الزاد، وقد رد الأكابر هذا القول، كما رد الحارث المحاسبى فى "كتاب التوكل" وحكاه عن شقيق البلخى، وبالغ فى الرد على من قال بذلك، ولكن من الحجج عليهم ما تبين به غلطهم وأنهم غالطون فى معرفة حقيقة التوكل، عاصون لله بما يتركون من طاعته .

وقد حكى الإمام أحمد فى كتاب الزهد، عن سعيد بن جبير قال : التوكل على الله جماع الإيمان .

([1]) انظر : الغنية للجيلانى ٦٠٨/٢ ، ومدارج السالكين ١١٦/٢ .

([2]) تلبيس إبليس صـ١٧٨ ، ١٧٩ .

فأورد أيضاً فى حديث زهد نوح عليه السلام حديث وفيه "من آمن بى فليتوكل على ومن لا يؤمن فليتبع غيرى" وذكر أيضاً عن وهب قال : يقول الله تعالى : " إذا توكل على عبدى لو كادته السماوات والأرض جعلت له بين ذلك المخرج" (١) .

وأضاف شيخ الإسلام قائلاً : "وأما قول القائل : إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقاً فليس الأمر كذلك؛ بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسباباً يحصل بها الرزق، كما قال نبينا محمد ﷺ فى الحديث الذى رواه أحمد فى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : ((بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم)) (٢)" (٣) .

ولهذا قال الإمام أحمد لرجل جلس فى بيته أو فى مسجده، لا يعمل شيئاً حتى يأتيه رزقه بأن هذا رجل جهل العلم، واستدل بالحديث السابق، والحديث الذى ذكر الطير تغدو، والذى رواه أحمد فى مسنده أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((لو أنكم تتوكلون على حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطاناً)) (٤) ، فذكر أن الطير تغدو فى طلب الرزق .

ثم قال : قال تعالى : ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ (٦) ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون فى البر والبحر، ويعملون فى تخيلهم ولنا القدوة بهم (١) .

---

(١) الزهد صـ٨١ ، ٨٢ .

(٢) أخرجه أحمد ٢/٥٠ .

(٣)المصدر السابق صـ١٦٥ .

(٤) سبق تخريجه فى صـ .

(٥) سورة المزمل من الآية : ٢٠ .

(٦) سورة البقرة من الآية : ١٩٨ .

رؤية الإمام أحمد للأحوال

١) الخوف والرجاء :

إذا ما نظرنا إلى حالى الخوف والرجاء وتتبعنا كلام الإمام أحمد فيه نجده من أخوف الناس خوفه لا يختلف كثير عن خوف أئمة الصوفية فنجد يكاد يكون أعلى ما يكون فيه حين يقول : "الخوف منعنى عن أكل الطعام" [٢] .

قال الإمام أحمد منتقداً الإنسان المقصر والمتوانى فى هذه الحياة، ومبيناً موقفه من الخوف والرجاء : "سبحانك ما أغفل هذا الخلف عما أمامهم؛ الخائف مقصر، والراجى متوان " [٣] .

وبين المروذى حاله من الخوف والرجاء فقال : "سمعت الإمام أحمد يقول : الخوف منعنى عن أكل الطعام فما أشتهيه، فإذا ذكرت الموت هان على كل شيء" .

وقال إبراهيم الحربى : سمعت أحمد يقول : إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على ما يحب، والخير فيمن لا يرى لنفسه خيراً" [٤] .

وقال صالح بن أحمد: كان أبى إذا دعا له رجل يقول : الأعمال بخواتيمها، وكنت أسمعه كثيراً يقول : اللهم سلم سلم" [٥] .

وقال أبو بكر المروذى : "دخلت على أحمد يوماً فقلت : كيف أصبحت؟ فقال : كيف أصبح من ربه يطالبه بأداء الفرض ونبيه يطالبه بأداء السنة، والملكان

---

(١) تلبيس إبليس صـ٣٤٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١٥/١١ .
(٣) الآداب الشرعية ٣١/٢ .
(٤)المصدر السابق .
(٥) مناقب الإمام أحمد صـ٢٨٣ .

يطالبانه بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يطلبه بالفحشاء، وملك الموت يطالبه بقبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة" [١] .

ومع ذلك كان الإمام أحمد يقول : يجب أن يكون الخوف والرجاء من الله متوازيين فى قلب المؤمن فلا يطغى الخوف على الرجاء، أو الرجاء على الخوف، كما بين ذلك إسحاق بن إبراهيم بن هانئ فيقول : قال لى أبو عبد الله : ينبغى للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحداً [٢] . وقال غيره عنه : فأيهما رجح صاحبه هلك .

وهذا الكلام موافق لما يقوله أبى على الروذبارى الصوفى : "الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه، وإذا نقص واحد منهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا جميعاً صار الطائر فى حد الموت" [٣].

ولكن فى حال المرض ينبغى أن يكون رجاء المريض أكثر، وقد قال الإمام أحمد لرجل : لو صححت ما خفت أحداً وقد قيل :

فما فى الأرض أشجع من برئ ولا فى الأرض أخوف من مريب

وقد قال الإمام أحمد عن الخوف : "الخوف منعني أكل الطعام والشراب وإذا ذكرت الموت هان على كل أمر الدنيا إنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس وإنها أيام قلائل ما أعدل بالفقر شيء ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لى ذكر" [٤] .

([١])المصدر السابق صـ٢٨٤ .

([٢]) مسائل الإمام أحمد بن حنبل، رواية إسحاق بن إبراهيم هانى، ت زهير الشاوش، المكتب الإسلامى ١٧٨/٢ .

([٣]) الآداب الشرعية ٣٢/٢ .

([٤]) سير الأعلام ٢١٥/١١ ، ٢١٦ .

وقد قال الإمام بن تيمية : " الخوف ما حجزك عن محارم الله " [١] .

ورؤية الإمام أحمد للخوف والرجاء هو ما كان عليه السلف الصالح حيث كان أحدهم بتوازن لديه الخوف والرجاء حتى إذا اقترب من الموت ترجحت لديه كفة الرجاء على كفة الخوف ، ولهذا كان معاذ يقول فى مرضه الذى مات فيه اللهم إنى كنت أخافك فى حياتى وأنا اليوم أرجوك .

****

(١) مدارج السالكين ١/

ثانياً: رؤية الامام ابن تيميه للأحوال والمقامات.

من الموضوعات التى تحدث فيها شيخ الإسلام الأحوال والمقامات . وقد كان حديثه عنها حديث متعلق بأعمال القلوب فشيخ الإسلام كما نعلم يركز دائماً على التصوف المشروع ، القائم على الكتاب والسنة ، هذا التصوف جعل ابن تيمية فى حديثه عن الأحوال والمقامات يعيش مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تناولت هذه المقامات والأحوال ومن ثم يشير إلى ذلك بقوله : (إن أعمال القلوب –وهى التى تسمى المقامات والأحوال– تجب على المسلمين كافة، لأن الإسلام أمر بمحبة الله، والإخلاص له والتوكل عليه، والرضا عنه، وما إليها من أعمال باطنة مكلف بها العامة والخاصة ولا يكون تركها محموداً فى حال أحد وإن ارتقى مقامه) [١].

هنا يمكن القول أن مراد ابن تيمية أن هذه الأمور وإن كانت قاصرة على طائفة بعينها إلا أن هذا خلاف الأصل، فالأصل أن هذه الأمور واجبة على كل مسلم، والملاحظ أن ابن تيمية عندما أقام منهجه فى الحياة الروحية - أو ما يسمى عنده أيضاً بأعمال القلوب - ربط أفكار الصوفية - الذين يسميهم أصحاب التصوف المشروع أو صوفية الحقائق - عن المقامات والأحوال بالآيات القرآنية ، وأعطى تفسيراً ذوقياً للمعاني الرقيقة ،(ووجد السند أيضاً من الأحاديث النبوية ذلك أنه يرى أن هذين المصدرين يشكلان المنبع والنشأة للحياة الروحية السليمة ، لأن الله تعالى قد أظهر من نور النبوة ما طمس به من معالم الآراء الجاهلية وعاش السلف فى ضوء هذا النور الساطع) [٢] .

وسوف نتناول المقامات والأحوال عند ابن تيمية وكيف أنه صاغها فى إطار المعانى من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد طرق ابن تيمية مقام التوبة والفناء

---

(١) التحفة العراقية فى الأعمال القلبية صـ٣١١ .

(٢) ابن تيمية والتصوف صـ٤٩٠ .

والرضا والخوف والرجاء والمحبة، كما صحح نظريات الزهاد والصوفية التى لا تتفق مع الكتاب والسنة، ونقى الذوق والوجدان وعلم القلوب من الشوائب الدخيلة عليه والتى تسللت إلى التصوف، بعد أن أثبت زيفها وبطلانها ذلك لكى يقيم بنياناً شامخاً مؤسساً على الإسلام ومبادئه وأسسه القويمة .

والملاحظ على ابن تيمية فى حديثه عن المقامات والأحوال أنه لم يكن كغيره من علماء الصوفية الذين تناولوا هذه الأمور بالبحث والدراسة، حيث ذكروا مفهوم الحال والمقام و الفرق بينهما، أما شيخ الإسلام فلم يتناول مثل هذه الأمور وإنما تناولها مباشرة لأننى كما قلت: أن ابن تيمية لا يعنيه إلا الجوهر فى كل شيء .

أولاً : **رؤيته للمقامات**

١) **<u>مقام التوبة</u>** :

(التوبة هى أول مقامات المنقطعين إلى الله تعالى) [١] .

ويكاد يجمع الصوفية على أنها أول درجة فى سلم الترقى مع الله .فقد قال القشيرى عنها : (التوبة أول منزل من منازل السالكين وأول مقام من مقامات الطالبين) [٢] .

– وقال عنها الغزالى : (التوبة مبدأ طريق السالكين ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء المقربين) [٣] .

وكذلك بدأ بها ابن تيمية فى حديثه عن المقامات والأحوال، وما دفعه إلى هذا إلا تأثره بمشايخ الصوفية الذى يتضح خطوة بعد خطوة، وإذا كان ابن تيمية ركز فى

([١]) اللمع للطوسى صـ٦٨ .

([٢]) الرسالة القشيرية صـ٧٧ .

([٣]) إحياء علوم الدين ٣/٤ ، طبع دار الريان للتراث ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

حديثه عنها من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فكذلك الصوفية إلا أنهم زادوا عليه من خلال إدراج أقوال بعضهم فيها .

– يقول ابن تيمية فى حديثه عن التوبة : (إن الله تعالى قد أعلن أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين وأن التوبة من خصال أولياء الله الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله سبحانه : ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ [١] .

– والتوبة عنده كذلك تستلزم محبة من أمرنا الله بحبهم ، وعنهم يقول ابن تيمية : (فأما ما أمرنا بكراهته من الموجودات : كالكفر والفسوق والعصيان فعلينا أن نطيعه فى أمره بخلاف توبته على عباده وإنجائه إياهم من العذاب فإن هذا من مفعولاته التى لم يأمرنا أن نكرهها، بل هى مما يحبها فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، فكراهة هذا من نوع إتباع الإرادة المزاحمة للإلهية، فعلى صاحبها أن يحقق توحيد الإلهية فيقول : لا إله إلا أنت فعلينا أن نحب ما يحب ونرضى ما يرضى ونأمر بما يأمر وننهى عما ينهى، فإذا كان يحب التوابين ويحب المتطهرين فعلينا أن نحبهم، ولا نأله مراداتنا المخالفة لمحابه) [٢] .

وإذا كان كلام ابن تيمية يلحظ عليه أنه ذو معان شرعية فلا عجب فى ذلك لما هو معلوم عنه من حرصه الدائب والشديد على ربط التصوف بالشريعة والتأكيد على أنهما وجهان لعملة واحدة لا ينفصلان ويدل على ذلك ذكره المتعدد فى مواطن مختلفة من كتبه مصطلح التصوف المشروع .

---

(١) سورة يونس الآيتان : ٦٢ ، ٦٣ . وانظر التحفة العراقية فى الأعمال القلبية صـ١٤٠ وما بعدها .

(٢) الفتاوى كتاب السلوك ٢٨٩/١٠ .

– كذلك يرى ابن تيمية أن العبد محتاج إلى التوبة دائماً فيقول : (وأن العبد لا يزال متقلباً فى نعم الله، لأنه محتاج إلى التوبة والاستغفار، ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين ﷺ يستغفر الله فى جميع الأحوال) [١] . وابن تيمية يضع التوبة ضمن المقامات التى تستمر مع العبد من أول أمره الى منتهاه أذ المقام سمى مقاماً لإقامته .

أقسام التوبة عنده :

يقسم ابن تيمية التوبة إلى قسمين :

١- **توبة** واجبة:

وهى التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور وهذه واجبة على جميع المكلفين كما أمرهم الله بذلك فى كتابه وعلى ألسنة رسله) [٢] .

ويسميها كذلك التوبة العامة والتى تتضمن عزماً عاما بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور) [٣] .

٢- المستحبة :

(وهى التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات) [٤] .

ويسميها كذلك بالتوبة المطلقة : وهى أن يتوب توبة مجملة، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سبباً لغفران المعين، كما تصلح أن تكون

---

(١) التحفة العراقية صـ١٤٢ .

(٢) جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية صـ٢٢٧ .

(٣) الفتاوى كتاب السلوك ٣٢٥/١٠ .

(٤) جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية صـ٣٢٧ .

سبباً لغفران الجميع، بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام، كما تناولت الذنوب تناولاً عاماً) [١] .

وتقسيم ابن تيميه هنا للتوبة قد يختلف مع تقسيم الصوفية لها حيث قالوا : والتوبة ثلاثة

١) توبة عوام وهي من الذنوب

٢) وتوبة خواص وهي من الغفلة

٣) وتوبة خواص الخواص وهي من رؤية الاعمال

وان كان المدقق فى تقسيم ابن تيميه يلحظ اقتصاره علي نوعين وهما توبة العوام وتوبة الخواص ' دون توبة خواص الخواص وان كان في غير هذا النص لا ينكر توبة خواص الخواص والتي تكون استغفارا عقب الاعمال الصالحة خشية ان ترد عليهم هذه الاعمال كما قال لحق سبحانه وتعال (كانو قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون)

وبعد أن ذكر أقسامها وصل في نهاية حديثه عنها : أن التوبة تطهر العبد من ذنوبه وخطاياه ، وتجعله موضعاً لحب الله ، إذ يقول عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [٢] .

(والعبرة بكمال النهاية ، لا بما جرى في البداية، فالأعمال بخواتيمها) [٣] .

٢) مقام التوكل :

---

(١) الفتاوى ، كتاب السلوك ٣٢٨/١٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٢٢ .

(٣) ابن تيمية والتصوف صـ٤٩٣ .

مقام التوكل من أسمى مقامات العارفين بالله ، ولذلك تعددت أقوال الصوفية فى تعريفه .

– وقد ذكر الطوسي أقوال كثيرة عن الصوفية فى معنى التوكل منها [١]:

قال ذو النون المصري : التوكل :ترك تدبير النفس و الانخلاع من الحول والقوة [٢].

وقال الجنيد : التوكل : اعتماد القلب علي الله تعالي [٣] .

قال سهل : التوكل : الاسترسال بين يدى الله تعالى) [٤] .

– لكن ابن تيمية عندما تحدث عن هذا المقام جمعه أولاً مع المحبة والإخلاص ، فقال : وأما المحبة لله والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض ، وهى حسنة محبوبة فى حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق) [٥].

– ثم يورد ابن تيمية أقوالاً عن التوكل فيقول : (قالوا عن التوكل : إن التوكل مناضلة عن النفس فى طلب القوت ، وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروعها منها فلا يطلب شيئاً) [٦] .

---

[١] اللمع ص ٧٨

[٢] المصدر السابق

[٣] اللمع ص ٧٩

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف صـ١٠٠ ، ١٠١ . واللمع ص٧٨

(٥) الفتاوى كتاب السلوك ١٧/١٠ .

(٦) المصدر السابق صـ١٨ .

– ويقول كذلك عن التوكل : (التوكل من الأمور الدينية التى لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ورسوله) [١] .

وأيضاً : فإن التوكل هو محبوب لله مرضى له مأمور به دائماً ، وما كان محبوباً لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين)[٢].

وباب التوكل يفضى إلى مناقشة موضوع القدر الذى ينقسم فيه الشيوخ إلى فريقين :

أحدهما : يرى أن الأمور قد فرغ منها فلا حاجة للدعاء ، لأن المطلوب كان مقدراً .

والثانى : يذهب إلى الاعتقاد بأن التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة ، وإنما هو عبادة محضة .. وليس الغرض منه جلب منفعة أو دفع مضرة .

– يقول ابن تيمية : (وأما قولهم إن الأمور قد فرغ منها ، فهذا نظير ما قاله بعضهم فى الدعاء أنه لا حاجة إليه ، لأن المطلوب إن كان مقدراً فلا حاجة إليه ، وإن لم يكن مقدراً لم ينفع الدعاء ، وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً، وكذلك قول من قال : التوكل والدعاء لا يجلب بهما منفعة ولا يدفع به مضرة، وإنما هو عبادة محضة) [٣] .

وبعد أن رد على من قال بأن التوكل والدعاء يجلب به منفعة أو يدفع به ضر قال بأن هذه الأقوال يجمعها أصل واحد وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة –أيضاً– تكون من العبد، ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التى جعلها بها من أفعال العباد، وغير

---

(١) المصدر السابق صـ٢١ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) السابق صـ٢١ ، ٢٢ .

أفعالهم، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية، ويستشهد ابن تيمية بالأحاديث النبوية فى هذا الموضوع التى كانت مثار بحث وتساؤل منذ عهد الرسول ﷺ، كما جاء فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال : قيل لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم .قالوا : فيم العمل ؟ قال : كل ميسر لما خلق له) [1] .

وفى الصحيحين عن على ابن أبى طالب قال : كنا فى جنازة فيها رسول الله ﷺ فجلس ومعه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة فى الأرض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة، قال : فقال رجل من القوم يا نبى الله : أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى أهل الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون للسعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ، ثم قال نبى الله ﷺ : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ [2] .

– ولم يقتصر حديث ابن تيمية عن التوكل عند هذا الحد بل نراه ينقد بعنف مشايخ المتواكلين فيقول : (وهذا الأمر قد وقع فيه كثير من المشائخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل، ويحسب أن قول القائل ينبغى أن يكون مع الله كالميت يتضمن ترك العمل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى يترك ما أمر به، ويفعل ما نهى عنه وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذى يفرق به بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه،

([1]) البخارى فى القدر ٦٥٩٦ ومسلم فى القدر ٩/٢٦٤٩ .

([2]) سورة الليل الآيات : ٥ : ١٠ والحديث أخرجه البخارى فى التفسير ٤٩٤٨، ومسلم فى القدر ٦/٢٦٤٧ .

وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه كما قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ** ﴾ (٢) .

ومن السنة : نهى رسول الله ﷺ عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذى ينفع العبد، فروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : "المؤمن القوى خير وأحب لله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان"(٣) .

وهكذا وقف ابن تيمية من المتواكلين موقفاً صارماً بعد أن بين أنه لا يمكن أن نسوى بين من يعمل وبين من لا يعمل لأن فى هذا تخاذل واسترسال، اختلط على بعض السالكين حتى صاروا معاونين على البغى والعدوان للمسلمين فى الأرض من أهل الظلم والعلو .

وهو فى هذا الأمر يقسم الناس وعلاقتهم بالتوكل إلى أربعة أقسام :

القسم الاول : قسم ينظرون إلى جانب الأمر والنهى والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذى أمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة: فهم مع حسن قصدهم

---

(١) سورة الجاثية الآية : ٢١ .

(٢) سورة فاطر الآية : ١٩ : ٢٢ .

(٣) مسلم فى القدر ٣٤/٢٦٦٤ عن أبى هريرة .

وتعظيمهم لحرمات الله وشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لأن الاستعانة بالله والتوكل واللجوء إليه والدعاء له هى التى تقوى العبد وتيسر عليه الأمور .

والقسم الثاني :قوم يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم عليه ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته، وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة، ولهذا كثيراً ما يعملون على الأحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه وهؤلاء كثيراً ما يسلبون أحوالهم، وقد يعودون على نوع من المعاصى والفسوق، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام، لأن العاقبة للتقوى .

وأما القسم الثالث : وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الأقسام .

وبعد أن تحدث ابن تيمية عن هذه الأقسام الثلاثة مبيناً أن شر الأقسام آخرها ، وأن القسمين الأولين يؤخذ عليهم بعض المآخذ وهى أنهم لم يفهموا معنى التوكل الحقيقى ، فسم غلب عليه الضعف والعجز والخذلان ، وقسم اشتهر بأنه عديم النظر، لأنهم يتصورون أشياء وهى من وجهة نظرهم صائبة ولكنها غير صائبة .

ثم شرع شيخ الإسلام فى بيان أفضل هذه الأقسام فيقول : (والقسم الرابع : هو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [1]، وقوله : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [2]، وشهدوا أنه إلههم الذى لا يجوز أن يعبد إلا إياه بطاعته وطاعة رسوله ، وأنه ربهم الذى : ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ** ﴾ [3].

([1]) سورة الفاتحة الآية : ٥ .

([2]) سورة هود من الآية : ١٢٣ .

([3]) سورة الأنعام من الآية : ٥١ .

ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، وإنما التوكل المأمور بهما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع)[١].

والخلاصة : إن التوكل مقام من أسمى المقامات عند السالكين وأنه مأمور به فى حق العامة والخاصة وأنه لا ينافى الأخذ بالأسباب، بخلاف التواكل فإنه يؤدى إلى الكسل والركون إلى الراحة وعدم الأخذ بالأسباب، ولهذا كان رد شيخ الإسلام على المتواكلين من الصوفية رداً عنيفاً، لأنهم خالفوا تعاليم الإسلام، ذلكم الدين الذى يدعو إلى العمل، وأن المتكاسل لا مكان له فيه، ولذلك ينعى على أولئك الذين يتعللون بالقدر وأنهم مخطئون مثلهم كمثل المشركين الذين ذمهم الله لأنهم يقولون كما تحدث القرآن عنه : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ** ﴾ [٢] .

وهذا الموقف من ابن تيميه يتسق مع رؤية محققي الصوفية الذين يرون أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل وان الإعراض عن العمل والقول بإسقاط التكاليف ينافي التوحيد لهذا قال سيد الطائفة الإمام الجنيد عن أصحاب هذه الدعاوي الفاسدة (والذي يزني ويسرق أفضل عندي من هؤلاء)

٣) مقام الزهد :

– مقام الزهد من مقامات الصوفية العالية، وقد تعددت أقوال الصوفية فى تعريفه :

قال الجنيد : الزهد خلو اليد من الأملاك ، والقلوب من الطمع [٣] .

([١]) مجموع الفتاوى ، كتاب السلوك ٣٢/١٠ : ٣٥ .

([٢]) سورة الأنعام من الآية : ١٤٨ .

[٣] المصدر السابق ص ٧٢

وقال السري السقطي : الزاهد الذى يخلو قلبه مما خلت منه يداه [١] .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : ويلكم؟ أى مقدار لأقل من جناح بعوضة متى يزهد فيها؟ [٢] .

لكن ابن تيمية كما هو واضح عليه فى حديثه عن المقامات، يركز دائماً على الشيء المشروع، بداية من حديثه عن التصوف، وكذلك المقامات التى أسلفنا الحديث عنها فهو يقول عن الزهد : (الزهد المشروع هو : ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة، وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله) [٣] .

وابن تيميه هنا يضع تعريفا متفردا للزهد وان كان لا يبعد كثيرا عما ذكره الصوفية

– يقول ابن تيمية : الزهد هو عما لا ينفع إما لانتفاء نفعه أو لكونه مرجوما لأنه مفوت لما هو أنفع منه .. أما المنافع الخالصة فالزهد فيها حق .

– ويوضح ابن تيمية قوله هذا فيقول : فأما ما ينفع فى الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما ينفع فى الدار الآخرة ، فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [٤]، كما أن الاشتغال بفضول المباحات، هو ضد الزهد المشروع، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو فعل محرم كان عاصياً، وإلا كان منقوصاً عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين) [٥] .

---

[١] المصدر السابق

(٢) الرسالة القشرية صـ٩٥ ، والتعرف لمذهب أهل التصوف صـ٩٣ .

(٣) مجموع الفتاوى كتاب السلوك ٢١/١٠ .

(٤) سورة المائدة الآية : ٨٧ .

(٥) كتاب السلوك صـ٢١/١٠ .

وبعد أن تحدث ابن تيمية عن الزهد المشروع فرق بينه وبين الرغبة فى الشيء فقال : الزهد خلاف الرغبة، يقال : فلان زاهد فى كذا، وفلان راغب فيه والرغبة من جنس الإرادة، فالزهد فى الشيء انتفاء الإرادة له، إما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريداً له ولا كارهاً له، وكل من لم يرغب فى الشيء ويريده فهو زاهد فيه .

ولهذا كان أساس الطريق الإرادة، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** ﴾ (١) .

كما رغب فى الزهد وذم ضده فى قوله : ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ** ﴾ (٢) .

وإنما فرق ابن تيمية بين الزهد والرغبة لأنه كثيراً ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة من الأوامر الشرعية، وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذى ضل سعى صاحبه) (٣) .

والحق أن حديث ابن تيمية عن الزهد حديث إن دل على شيء فإنما يدل على أن ابن تيمية تذوق هذه المعانى وعاش معها، فهو عندما يتحدث عن الزهد، فإنما يتحدث عن زهد ينبغى على كل مسلم أن يتمثله، لذلك رأى أن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع، وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع، وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع .

والحق أن كلام ابن تيميه في تفريقه بين الزهد والرغبة هو كلام دون كلام السادة الصوفية ذلك أن الرغبة في الشيء ثم تركه ابتغاء وجه الله أوقع من الزهد في

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١٩ .

(٢) سورة هود الآية : ١٥ .

(٣) السلوك ٦١٦/١٠ ، ٦١٧ .

الشيء وهو كاره له ولهذا كان ابن عمر رضي الله عنهما ينفق السكر لأنه أحب شيء إليه وترك التمتع بالنساء مع الميل البشري ادخل في باب الزهد من غيره

٤) مقام الرضا :

من أعلى مقامات الصوفية مقام الرضا، قال الله تعالى : ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [١] . وقال سبحانه : ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [٢] والرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، وزهو أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل)[٣] .

– تحدث شيخ الإسلام عن مقام الرضا فبدأ بتقسيمه إلى ثلاث أقسام :

١– الرضا بالقضاء وهو الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلزال كما قال تعالى : ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ** ﴾ [٤] وقوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا** ﴾ [٥] وقد اختلف فى هذا القسم من أقسام الرضا هل هو واجب أو مستحيل على قولين: فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين) [٦] .

٢– الرضا بما أمر الله به من الطاعات وهو واجب، وهو من الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [٧] .

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١١٩ .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٧٢ .

(٣) فى التصوف والأخلاق ، د. عبد الفتاح بركة صـ١٨٥ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ١٧٧ .

(٥) سورة البقرة من الآية : ٢١٤ .

(٦) السلوك ضمن الفتاوى ٤٠/١٠ ، ٤١ .

(٧) سورة النساء الآية : ٦٥ .

٣- الرضا بالمنهيات من الكفر والفسوق والعصيان وأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها، كما لا تشرع محبتها، فإن الله سبحانه لا يرضاها ولا يحبها، وإن كان قد قدرها كما قال سبحانه : ﴿ **وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ [١] .

– وبعد أن تحدث عن أقسام الرضا قال : والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله الحمد، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا، ولذلك جاء فى الكتاب والسنة حم الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه، ففى مسند الإمام أحمد بن حنبل عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ : قال : إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته : أقبضتم ولد عبدى؟ فيقولون : نعم، فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم، فيقول : ماذا قال عبدى؟ فيقولون : حمدك واسترجع، فيقول : ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة، وسموه بيت الحمد) [٢] .

– ويعقب ابن تيمية على هذا الحديث "بأن هذا المقام قد تجلى عند المشايخ الصوفية فذكر أن الفضيل بن عياض لما مات ابنه على فضحك وقال : "رأيت أن الله قضى فأحببت أن أرضى بما قضى الله به .. قم بتابع ويقول فالفضيل حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع .

والملاحظ على ابن تيمية فى حديثه عن هذا المقام الاعتماد على بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وإن كلماته فى الفقرة الأخيرة تدل على ميله إلى الاتجاه الروحانى عندما يفسر الرضا بالحمد ، ولعل هذا الأمر قد اتضح عنده أكثر عندما بدأ يعرض أقوال بعض الصوفية ، فيذكر بعض أقوالهم عن الرضا فيقول : (وحكى أبو نعيم الأصبهانى عن أبى بكر الواسطى أنه قال سمنون : يا رب قد رضيت بكل ما تقضيه على فاحتبس بوله أربعة عشر يوماً فكان يتلوى كما تتلوى

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٠٥ .

(٢) الترمذى فى الجنائز ١٠٢١ وقال حسن غريب، وأحمد فى المسند ٤/٤١٥ .

الحية، يميناً وشمالاً، فلما أطلق بوله، قال : رب قد تبت إليك، قال أبو نعيم : فهذا الرضا الذى ادعى سمنونا هذا كان يضرب به المثل) [١] .

ولا ادري من أي وجه ضرب به المثل سمنون ولا اعرف لماذا ذكره ابن تيميه في مقام الرضا . فالقصة بدأت مع قول سمنون يا رب قد رضيت بكل ما تقضيه علي فأبتلي بحبس البول أربعة عشر يوما ويتلوي سمنون كما تتلوي الحية ثم يعافيه الحق فيقول قد تبت . من أي شيء يتوب سمنون ؟ هل من التلوي ؟ وهل التلوي يعني الرضا ؟

وان كنت اري ان توبة سمنون إنما كانت من قوله قد رضيت بكل ما تقضي به علي ، ذلك أن الشرع يحذر المسلم من أن يسأل الله البلاء بل يسأله العافية . ومن هنا فاستشهاد شيخ الإسلام بهذه القصة في مقام الرضا استشهاد في غير محله.

– وقد ذكر القشيرى فى باب الرضا عن رويم المقرى رفيق سمنون حكاية تناسب هذا حيث قال : قال رويم: إن الراضى لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره، ويعترض ابن تيمية على هذه الرواية واستبعادها، فيقول : فهذا يشبه قول سمنون : فكيف ما شئت فامتحنى . فإذا لم يطق الصبر على عسر البول، أفيطيق أن تكون النار عن يمينه .

ويمتدح الفضيل بن عياض ويثنى عليه فيقول: والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وابتلى بعسر البول فغلبه الألم حتى قال : بحبى لك ألا فرجت عنى ففرج عنه) [٢] .

ومن الروايات التى اعترض عليها ما روى عن سليمان الدارنى أنه كان يقول: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار) [١] .

---

(١) كتاب السلوك ضمن الفتاوى ١٠/٦٩٠/٦٩١ .

(٢) السابق ٦٩١ .

– يقول ابن تيمية فى تعليقه على هذه الرواية (أن هذا الكلام ليس له إسناد صحيح عن أبى سليمان الدارنى، والقشيرى كثيراً ما يذكر مثل هذا بدون إسناد فيذكره مرسلاً، ويبين ابن تيمية أن مثل هذه الكلمة لم تذكر عن أبى سليمان إلا مرسلة، وبمثل ذلك لا تثبت عن أبى سليمان باتفاق الناس، فإنه وإن قال بعض الناس أن المرسل حجة فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف، فأما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء، كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه .

والكتب المسندة فى أخبار هؤلاء المشايخ وكلامهم مثل حلية الأولياء لأبى نعيم وطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن وصفوة الصفوة لابن الجوزى، وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ سليمان) [٢] .

– ولم يقتصر رد ابن تيمية على ما نسب لأبى سليمان الدارنى عند هذا الحد، بل قال: إن القشيرى قرن هذه الكلمة الثانية عن أبى سليمان بكلمة أحسن منها فإنه قبل أن يرويها قال : وسئل أبو عثمان الحيرى النيسابورى عن قول النبى ﷺ : "أسألك الرضا بعد القضاء" فقال : لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا، فهذا الذى قاله الشيخ أبو عثمان كلام حسن سديد، ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبى سليمان أنه قال: أرجو أن أكون قد عرفت طرفاً من الرضا، لو أنه أدخلنى النار لكنت بذلك راضياً .

فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان ليس هو رضا، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء وإن كان هذا عزماً فالعزم قد يدوم، وقد ينفسخ، وما أكثر انفساخ العزائم

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٢٣/٢ ، ٤٢٦ .

(٢) كتاب السلوك ضمن الفتاوى ٦٨٨/١٠ .

خصوصاً عزائم الصوفية، ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال : بفسخ العزائم ونقض الهمم) [١] .

وأقول : ما الذى دفع ابن تيمية إلى دفاعه عن الشيخ أبى سليمان إلا اقتناعه الشديد بأنه على حق فى تصوفه، الأمر الذى يجعلنا نؤكد أن ابن تيمية ليس كغيره ممن وقف من التصوف والصوفية موقف العداء، فهو لم يدافع عن شيء عبثاً وإنما يدافع وهو مقتنع بدفاعه، ولو أنه كان عدواً للصوفية كما قيل ما وقف من الدارانى هذا الموقف، ولكنه المدقق والذى لا يرفض أى فكر إلا بعد دراسته والوقوف على ما فيه، فما كان منه موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ قبله، وما كان مخالفاً لهما رفضه .

ولكن بما أن الرضا من أعمال القلوب والناس فيها مختلفون فما المانع أن يكون الدارانى أرسخ مقاماً من الفضيل وبهذا فما الضير فى صدور هذا منه .

هذه نماذ لبعض المقامات التي ذكرها ابن تيميه وان كان الرجل قد تناول الورع والصبر وغيرهما ....

ثانياً :رؤية الإمام ابن تيمية للأحوال

تناول ابن تيمية الحديث عن بعض الأحوال كما تناول الحديث كذلك عن بعض المقامات، وقد أسلفنا الحديث عن بعض المقامات عنده ، وقد رأينا مدى اهتمام ابن تيمية فى حديثه عن بعض المقامات بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ثم إيراد بعض أقوال الصوفية ؟ كما لاحظنا كذلك أنه دائماً يهدف إلى التصوف المشروع الذى بدأنا بالحديث عنه، الأمر الذى يجعله يدافع عن بعض مشايخ الصوفية ممن يرهم من وجهة نظره يمثلون التصوف المشروع، وهذا الأمر كما قلنا يجعلنا نؤكد

(١) السابق نفس الصفحة .

الجانب الروحانى عند ابن تيمية، وأنه ليس عدوا له ، ومن هذه الأحوال التى تحدث عنها ما يلى :

١) حالة الفناء :

قبل أن نذكر رأى ابن تيمية فى الفناء يجدر بنا أن نبين معنى الفناء فنقول :

جاء فى تعريف معنى الفناء : سقوط الأوصاف المذمومة ، والبقاء : هو قيام الأوصاف المحمودة) [١] وهو –أى الفناء– الحال الذى تتوارى فيه آثار الإرادة الشخصية والشعور بالذات وكل ما سوى الحق فلا يرى الصوفى فى الوجود غير الحق، ولا يشعر فى الوجود بشيء سوى الحق وفعله وإرادته .

أما عن رأى ابن تيمية فى الفناء فقد تحدث عن هذا الحال، وإن كان حديثه يختلف عن غيره من الصوفية الذين تناولوا هذه الأحوال والمقامات بتعريفها بينها، وقد وضحت هذا الأمر سابقاً، من أن ابن تيمية لا يعنيه هذه الأمور بقدر ما يعنيه موافقتها لما فى الكتاب والسنة، وبيان أقوال الصوفية الذين يراهم من وجهة نظره أنهم يمثلون التصوف الحق، وفى حديثه عن هذا الحال سلك طريقا يختلف عمن تناول هذا الحال، فهو لم يحاول إيجاد الصلة بين هذا الحال وبين الآيات القرآنية، كما فعل مثلا الصوفى الهروى الأنصارى، ولم يسلك طريقة الإمام الغزالى ولكنه (وضع نصب عينيه تطبيق قاعدته المنهجية المعروفة عنده –أى المطابقة بين النصوص وبين الموضوع الذى هو بصدد دراسته مستخدماً معلوماته الوفيرة فى التاريخ واطلاعه الواسع على المصادر المختلفة) [٢] .

وفى بداية حديثه عن الفناء يبدأ تاريخياً باستبعاد هذا الحال عن الصحابة والتابعين –رضى الله عنهم– فيقول : وأكابر الأولياء كابى بكر وعمر والسابقين

---

(١) الراسالة القشيرية صـ٦١ .

(٢) ابن تيمية والتصوف د. محمد مصطفى حلمى صـ٥١١ .

الأولين من المهاجرين والأنصار: لم يقعوا فى هذا الفناء، فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة، وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان، فإن الصحابة رضى الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت فى الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غشى أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون) [١] .

وإذا كان ابن تيمية يستبعد الفناء من أكابر الصحابة، إلا أنه لم يستبعد صدور هذا من غيرهم، وليس أدل على ذلك من صدور هذا من بعض التابعين فيقول : وإنما كان مبادئ هذه الأمور فى التابعين من عباد البصرة، فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت : كأبى جهير الضرير، وزرارة بن أوفى قاضى البصرة، وكذلك صار فى شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول فى تلك الأحوال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه، كما يحكى نحو ذلك من مثل أبى يزيد، وأبى الحسن النورى، وأبى بكر الشبلى وأمثالهم) [٢] .

والملاحظ على ابن تيمية فى حديثه عن هذا الحال، كما هى عادته فى مثل هذه الأمور أنه يتحدث عن بعض من الصوفية الذين وقعوا فى هذه الأحوال، لكنه لم يعمم هذا الحكم، وكأنه يريد أن يقول أن هناك بعض الصوفية لم يقعوا فى مثل هذه الأمور، وهؤلاء من تأثر بهم حتى نجزم ونقول ليس هناك أدنى شك فى تصوف ابن تيمية، والذى يبدو دائماً وفى أغلب الأحوال مدافعاً عنهم، مبيناً أن هذه الأمور لا يمكن صدورها عنهم لتميزهم عن غيرهم فيقول : بخلاف أبى سليمان الداراتى ومعروف الكرخى، والفضيل بن عياض بل وخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم فى أحوالهم فلا يقعون فى مثل هذا الفناء والسكر ونحوه ، بل

---

(١) كتاب السلوك ٢٢٠/١٠ .

(٢) السابق صـ٢٢٠ ، ٢٢٦ .

الكمل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ما هى عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانته له، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى، ويكون منا يشهدونه من ذلك مؤيداً وممدا لما فى قلوبهم من إخلاص الدين وتجريد التوحيد له، والعبادة له وحده لا شريك له) [١] .

وإذا كان ابن تيمية يستبعد صدور مثل هذه الأمور عن هؤلاء موضحاً أهميتهم وتميزهم عن غيرهم الأمر الذى يجعل مثل هذه الأمور لا تصدر عنهم وهذا الأمر ليس دفاعاً عنهم فحسب، بل تأثر بهم وحباً لهم فهو دائماً يذكرهم بأطيب القول وأحسنه، ودائماً يركز على أقوالهم ويمدحهم .

أقسام الفناء عند ابن تيمية :

فى محاولة من ابن تيمية مرة أخرى يرى مدافعاً عن بعض الصوفية الذين تأثر بهم، ودافع عنهم، الأمر الذى يجعلنا نؤكد تصوفه بين الحين والحين وسيتضح هذا الرأى عند حديثه عن الفناء وأحوال الناس فيه، فيقسمهم إلى ثلاثة أقسام : الأول : هو الفناء عن إرادة ما سوى الله بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب غيره : وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال : أريد أن لا أريد لا ما يريد، أى المراد المحبوب المرض، وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، وهو ما أمر به إيجاب أو استحباب، ولا يحب إلا ما يحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين) [٢] .

---

(١) السابق نفس الصفحة .

(٢) السابق صـ٢١٨ .

ويبدو من كلام ابن تيمية أنه عد هذا القسم من أفضل الأقسام، كما يبدو تأييده ودفاعه عن أبى يزيد فى فنائه وموافقته له ولغيره من الصوفية حتى وجدناه يدافع عن السهرودى فى فنائه كذلك فيقول حكاية عن ابن عربى لما ذكر له عن الشيخ شهاب الدين السهروردى وكلامه فى الفناء قال ابن عربى: نحن نقول عن شهود الذات والسهروردى يخبرنا عن شهود الصفات فالسهروردى فى الفناء لم يعجب ابن عربى .

يقول ابن تيمية معلقاً على هذه الحكاية : والصواب مع شهاب الدين فإنه كان صحيح الاعتقاد فى امتياز الرب عن العبد) [١] .

وأما القسم الثانى: فهو الفناء عن شهود السوى وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون، كما قيل فى فوله تعالى : ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** ﴾ [٢] .

ويشرح ابن تيمية هذا القسم ويوضحه أكثر بعبارات هى الي الصوفية أقرب فيقول: فإذا قوى على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفة عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهى المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى، والمراد فناؤها فى شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو بشهدها، وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى اضطرب فى تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر : أن رجلاً ألقى نفسه

---

(١) السابق ٣٣٩ وما بعدها .

(٢) سورة القصص من الآية : ١٠ .

فى اليم فألقى محبه نفسه خلفه، فقال : أنا وقعت فما أوقعك خلفى؟ قال : غبت بك عنى، فظننت أنك أنى) [١].

ثم يبين ابن تيمية أن قوماً وقعوا فى هذا الموضع وظنوا أنه اتحاد بالله وهذا غلط فيقول: وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد، وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق فى نفس وجودهما، وهذا غلط، فإن الخالق لا يتحد شيء بشيء إلا إذا استحالا وفسدا وحصل من اتحادهما أمر ثالث لا هو هذا ولا هذا، كما إذا اتحد الماء واللبن، والماء والخمر، ونحو ذلك ولكن يتحد المراد والمحبوب والمكروه ويتفقان فى نوع الإرادة والكراهة، فيجب هذا ما يجب هذا ويبغض هذا ما يبغض هذا، ويرضى ما يرضى ويسخط ما يسخط ويكره ما يكره، ويوالى من يوالى ويعادى من يعادى وهذا الفناء كله فيه نقص) [٢].

وأما القسم الثالث : مما قد يسمى فناء: فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين فى الحلول والاتحاد) [٣] .

وهذا القسم الأخير من أقسام الفناء الذى ذكره ابن تيمية يقصد به أصحاب وحدة الوجود الذين يسوون بين وجود الخالق والمخلوق، ومن ثم أطلق ابن تيمية عليهم فناء أهل الضلال والإلحاد .

وفى محاولة أخرى من ابن تيمية للدفاع عن الصوفية الذين تأثر بهم وأول لهم ما ورد عنهم من كلمات تعد من قبيل الشطح الصوفى، مستبعداً ظاهر كلامهم فيقول: والمشايخ المستقيمون إذا قال أحدهم: ما أرى غير الله، أو لا أنظر إلى غير الله،

([١]) كتاب السلوك صـ٢١٩ وانظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ٩٦/١ ، ٩٧ .

([٢]) السابق صـ٢٢٠ .

([٣]) السابق صـ٢٢٢ .

ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربا غيره، ولا خالقاً غيره ولا مدبراً غيره، ولا إلها غيره ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفاً منه أو رجاء له) [١].

ويشرح كلام الشيخ عبد القادر فى هذا الجانب بما يجعلنا ندرك مدى حبه لشيخه، وتأثره به فى روحانياته فيقول : قال الشيخ : فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم، وعن التردد إليهم، واليأس مما فى أيديهم .

وهو كما قال، فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم، وهذا يشتبه بما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به، ونهيهم عن ما نهاهم عنه، كذهاب الرسل وأتباع الرسل إلى من يبلغونه رسالات الله، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد، ليكون عابداً لله متوكلاً عليه، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل، أو مثله أو دونه ، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب، بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه) [٢] .

إن ابن تيمية يقف من الصوفية موقفاً يجعلنا ننظر إليه بإكبار وإجلال فتجده يقول (وقد وافق ، طوائف من المتصوفة ، السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتنعم بالنظر إليه وأصابوا فى ذلك وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسموا إليه همتهم ويخافون قوته وصار أحدهم يقول : ما عبدتك شوقاً إلى جنتك أو خوفاً من نارك ولكن لأنظر إليك) [٣] .

---

(١) السابق نفس الصفحة .

(٢) شرح كلمات الشيخ عبد القادر صـ٣٤ .

(٣) كتاب السلوك صـ٦٩٩ .

فينظر ابن تيمية إلى هذا النص ثم نجد مدى الإنصاف الواضح فى كلامه فيقول : (وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم لكن ليس له عبارة تبين كلامه فيقع فى كلامه خطأ وسوء أدب مع صحة مقصوده) [١] .

ويعلل شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك فيقول : (وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبة ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه حتى لا يشعر بنفسه وأرادتها فيظن أنه يفعل لغير مراده والذى طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين من أرباب الأحوال والمقامات)[٢] .

([١]) الاستقامة جـ٢ صـ١٠٥

([٢]) الاستقامة جـ٢ صـ١٠٥ ، وأنظر شيخ الإسلام ابن تيمية ،الزهد والورع والعبادة جـ١ صـ ١٣٢ تحقيق حماد سلامة ، محمد عويضة ،الطبعة الأولى مكتبة المنار الأردن ١٤٠٧هـ

الخلاصـــة :

بعد حديثنا عن حال الفناء وموقف ابن تيمية منه أقول: أن الفناء الذى قال به الصوفية كما وضح ابن تيمية أنه لا يجوز فى حق الله، فالله سبحانه منزه عن مثل هذه الأمور، فلا يجوز أن نصف الله بهذا الوصف، وأما ما حدث لبعض المتصوفة من هذا النوع فقد يعرض لبعض السالكين وليس من لوازم الطريق، بدليل أن هذا النوع لم يعرض للنبي ﷺ والسابقين الأولين وفى هذا المعنى يقول ابن تيمية: فمن جعل هذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالا مبيناً، ومن قال: أنه من لوازم طريق الله فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق الله التى تعرض لبعض السالكين دون بعض، وليس هو من اللوازم التى تعرض لكل السابقين) [١] .

وهذه هى الحقيقة التى دعا إليها القرآن الكريم، وقام بها أهل تحقيق الإيمان والكُمل من أهل العرفان ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم، ولذلك لما عرج به إلى السماوات العلى وعاين ما هناك من الآيات، وأوحى إليه ربه من أنواع المناجاة ما أوحى: أصبح فيهم ولم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك بخلاف ما كان يظهر على موسى من الغشي صلى الله عليهم أجمعين .

(١) ابن تيمية حياته وعصره للشيخ محمد أبو زهرة صـ٢٨٨ بتصرف .

تعقيب

من خلال ما سبق ذكره في هذا الفصل يتضح لنا عدة نقاط يمكن ان نجملها فيما يلي :

١) أن الإمام احمد بن حنبل لم نجد له فيما وصل إلينا اعتراضا على التصوف وخاصة فيما يتعلق بقضية الأحوال والمقامات .

٢) أن الإمام احمد ابن حنبل قد عالج قضية الأحوال والمقامات معالجة قائمة علي مصدري الإسلام الكتاب والسنة ومن سبق من رجالات السلف .

٣) أن السبب في عدم ذكر الأحوال والمقامات صراحة وان ذكر بعض مفرداتها هو أن الترتيب الداخلي لموضوعات التصوف لم تتضح معالمه بعد في عصر الإمام احمد بن حنبل فنراه يعالج قضية كالتوكل والزهد والورع لا علي أنها تحت مسمي المقامات بل علي أنها من مبادئ الإسلام وقضاياه الكبرى

٤) الإمام احمد بن حنبل من القلائل الذين خصصوا مؤلفات لبعض مقامات الصوفية مثل كتاب الزهد وكتاب الورع .

٥) أن الإمام ابن تيمية قد سار علي نهج الإمام احمد بن حنبل في موقفه من قضية الأحوال والمقامات وخاصة في الأمور العامة منها وان اختلف معه في تفصيل هذه المبادئ .

٦) أن الإمام ابن تيمية قد عالج قضية الأحوال والمقامات معالجة عملية حيث حاول ان يتمثل هذه المقامات والأحوال ونظرية حيث كتب في الأحوال والمقامات رسالته المسماة (التحفة العراقية).

٧) أن الإمام ابن تيمية قد تكلم في أدق أحوال الصوفية مثل السكر والفناء والصحو وهذا هو ما امتاز به عن الإمام احمد ابن حنبل.

٨) أن الإمام ابن تيمية قد برر موقف بعض الصوفية فيما ورد عنهم من ألفاظ تخالف ظاهر الشرع إما أنه أول كلامهم بما يتفق مع ظاهر الشرع أو فوض أمرهم إلي الله وهذا يشير إلي انه كالإمام احمد بن حنبل ليس عدوا للصوفية في مواجيدهم وأحوالهم .